

عداء مستحکم ضد المدن

دمار لم يسلم منه لا العمران ولا البشر ولا حتى السيارات



التدمير السريع لقلب بيروت مؤلم وصادم

ستعيش بطريقة مختلفة، إما بؤس الظلام والحر، وإما بضوء مولدات الديزل وأخرتها. والحبل على الجرار. التدمير السريع لقلب بيروت مؤلم وصادم. ولكن الدمار منتشر أكثر مما نتخيل.

المصاب بالجذري من كثرة الرصعات في أنحاءها. لا يمكن إحصاء الدمار في مدنتنا، الظاهر منه وغير الظاهر. مدينة بالملايين من البشر لا تصلها الكهرباء إلا ساعتين يوميا أيضا دمار، لأنها

القذارة الداخلية والخارجية. وصحيح أن فوضى المدن تتسبب بالكثير من الحوادث الصغيرة والاحتكاكات، ولكن ما معنى ألا يتم تصليح ضوء الإشارة وغطائه الملون أو أن يصيح بدن السيارة كالجلد

مكسر تكسيرا ولا يتم تصليحه، ومشهد الحفر وفتحات المجاري التي تمت سرقة أغبيتها وصهرها، والترقيعات تمديدات الكهرباء والماء البائسة تشكله، وإما يفترشه أصحاب البسطات من تجار فقراء لا يستطيعون دفع خلو المحال التجارية أو إيجاراتها. في أي فسحة رصيف متبقية، ستجد سيارة متهاكلة تستغل الموقف المجاني. في وسط الشارع يخلط المارة والسيارات معا.

خذ مثلا أجمل مكان في الإسكندرية: الكورنيش. هناك صفوف من المنازل والأبنية الجميلة مبنية من زمن أزاحه زمن عشوائي. أمام هذه الأبنية الجميلة والتي تثنى، هناك صفوف من العمارات الشاهقة الانتهازية والتي نسبت لونها الصغى منذ زمن طويل.

ولكي يمعن "المخطط الحضري" في إيذاء المدينة، اختار أن يجعل الطريق السريعة حوار عريضة لتاكل الكورنيش ويحوّله إلى مجرد مسارات خرسانية وإسفلتية تفقد حتى إلى الحد الأدنى من التواصل بين المباني والساحل الرملي. الاتفاق المتعاقبة تحت هذه الطريق السريعة لا تستقطب أحدا، ومشهد عبور المارة على الطريق السريعة بين السيارات التي لا تلتزم بالحد الأدنى من قواعد المرور هو مشهد من فيلم رعب.

يحدرونك من مدن الصفيح التي تخفق المدن الكبرى. تتخيلها على أطراف المدن، حتى تقود سيارتك على طريق سريعة معلقة وسط مدينة عربية مكتظة، لترى أن أسطح كل البنائيات هي مدن صفيح كاملة الأوصاف.

تدخل شقة الصديق فتجدها واحة، وتسال لماذا كل هذه القذارة في المدخل وعدم الاهتمام. ما عاودتكم مع مصباح المصعد؟ لماذا لا تحلوا التكريات إلا عندما يتم حفرها على معدن تلك المصاعد أو خشبها؟ لماذا لا يتم صبغ البنايات وهي مبنى خاص ولا ينتظر من البلدية أن تصبغ؟

حتى السيارات مهجة المدن في العصر الحديث تعامل بنفس الطريقة. الجميع يحلم بشراء سيارة. ثم يشتري السيارة ويتبدد رحلة عذابها. صحيح أن الشوارع متربة، لكن هذا لا يعني أن تترك السيارات بكل هذه

تتشابه أغلب المدن العربية في الدمار الذي تعاني منه. دمار طال المباني والطرق وكل عناصر العمران. دمار حتى في أساطيل النقل وضوء الشمس ومصابيح الليل وأقماره التي تحجبها بنايات مترهلة وبلا صيانة. نضيف إلى ذلك الدمار الكبير الذي شوه عقليات الناس ونظمهم الأخلاقية والجمالية، ليخلق ما وسمه كثيرون بـ"تريف المدن". ما هو سبب اعتلال المدن؟ المدن ليست نظاما دخيلا على العرب سابقا، لكن لماذا أصبحت كذلك اليوم؟

الأميركية لمسح المبني بضربه بقنابل ثقيلة.

لكن تدمير المدن العربية بدأ مبكرا ولا يزال مستمرا. التغييرات المجتمعية في كل الدول العربية جعلت المدن ملاذا لعشرات الملايين من أناس ما عادوا يحتملون حرمان الجبهويات وإهمالها.

في الكثير من المدن العربية هناك وعي مضاد للمدينة نشأ واستحکم وقرر انتهاك فكرة تأسيسها وديمومتها

كندا وأستراليا والولايات المتحدة وتايوان تنتج الخنطة والشعير والأرز، ونحن نأكل ونتكاثر. نمو سكاني في جزء منه غذاء رخيص وجزء آخر انعدام المسؤولية الرسمية والشخصية وجزء ثالث تحريض ديني. القرى والبلدات تصخّ بأجيال من الباحثين عن فرصة، والمدن تتضخم بمن فيها ومن القادمين. أهل المدن لم يقصروا بدورهم، وامتلأت الشوارع والأزقة والأحياء. والمدن تعاني. مدينة مصممة للمليون أو مليونين، يسكنها ثمانية ملايين أو أكثر. أي مجار، قبل أن نقول أي شوارع، ستستحمل كل هؤلاء؟

حلم السيارة

انظروا إلى العدا للارصفة. للرصيف مهمة محددة. أن يسمح للمارة بالحركة. ما هو حال الرصيف في مدينة عربية متوسطة السكان؟ إما

هيثم الزبيدي
كاتب من العراق
مقيم في لندن

زرت بيروت قبل أشهر قليلة من الانفجار في ميناها والذي دمر جزءا كبيرا من مشاهد الحياة المتبقية فيها. بيروت مدينة منكوبة حتى من قبل الانفجار، لكن الانفجار جاء ليستكمل المشهد.

في الزيارات السابقة كانت كل المؤشرات تدل على الأضمحلال لأسباب سياسية. في الزيارة الأخيرة كان يكفي أن تتجول في أحياء وسط المدينة المستعادة من حرب سابقة، لتدرك أن صناعات الحرب كان يرؤعهم أن يروا عودة الحياة. مناطق مغلقة بالكامل، والصامدون يقفون خلف فترينات المحلات ينتظرون زبونا لن يأتي.

المباني المدمرة

هو العدا المستحکم ضد المدن في عالمنا العربي. لا أعرف إن كان من الإنصاف إطلاق أوصاف مثل "تريف" المدن العربية. الريف العربي المسالم منكوب هو الآخر. لكن من الواضح في عدد لا يستهان فيه من المدن العربية أن وعيا مضادا للمدينة نشأ واستحکم وقرر انتهاك فكرة تأسيسها وديمومتها. بيروت ليست المدينة الوحيدة التي تم تدمير جزء منها بشكل كبير. عشت في مدينتين عراقيتين أصيلتين تم تدمير أجزاء كبيرة منهما: الرمادي والموصل. الدمار هنا مرتبط بعمليات عسكرية لا أعرف مدى القدرة على تبرير الكثير منها. وجود قنص أو قنصين من مجرمي داعش على سطح مبنى عام وسط الموصل لا يبرر استدعاء الطائرات

ضرورة نقد الضحية لاكتشاف جذور المعضلة

النظام السياسي يكون بتغيير تلك الرُوح التي تسري في كل الحثيات والجزئيات التي تصادفها يوميا. لعلها مهمة شاقة على الحالمين، محبطة للناقمين، طالما أنها تراهن على تغيير العقول والأنواق، رويدا رويدا، وبعيدا كل البعد عن عقيدة الخلاص، لكنها في الحساب الأخير تظل المهمة الثورية الفعلية بكل المقاييس، دونها ستغدو الممارسات الثورية مجرد حملات دونكيشوتية، أو فحلات تنكزية، دعنا نقولها بوضوح: جبهتنا القادمة، وهي الجبهة الباقية أيضا، تتعلق بإصلاح العقل والحضارة والكينونة. نتحدث تحديدا عن المثقف الأخلاصي - ولعل فكرة الاخلاص جوهرية في نص نوري الجراح - بحيث يبقى أفق المثقف الاخلاصي خارج حسابات السلطة. إنه لا يحرض أحدا على أحد، طالما هو ناقد عمومي للجميع، للدولة والمجتمع، للسلطة والرأي العام، للنخب والجمهور، إنه ناقد لروح السلطة بمعناها العام. ذلك أن التغيير بالمعنى الفوكوي ليس وسيلة لإقامة نظام نهائي ومطلق، بل سيرورة دائمة ومتواصلة، يتعلق الأمر بنوع من الثورة الدائمة، إذن، لكن دون أي أفق خلاصي هذه المرة، بحيث لا غاية أخرى سوى الاتوقف صيرورة الحياة.

اقرأ. السنة أمة اقرأ؛ التعليم، الثقافة، التربية، التنوير، هو شغلنا الحقيقي الذي انتبه إليه الكواكب قبل أن نغفله أو نخفل عنه في غمرة أوهام السياسة. وأوهام السياسة لا حصر لها، من ضمنها الاعتقاد بأن السياسة بوسعها أن تحل كل مشاكل الحضارة والوجود والعقل والتاريخ وهم جرا. وهذا مجرد هراء.

وفق مقاربة ميشيل فوكو لمفهوم السلطة، ليست السلطة جوهرا متعاليا، بل روح تسري فينا جميعا وتنتشر في كل تفاصيلنا اليومية، ثم يملك كل واحد منا نصيبه من التواطؤ فيها، حتى وإن كانت تسحقه في الأول أو في الأخير. لا تنحصر السلطة في مكان محدد، ولا تهبط علينا من فوق، لكنها تنتشر أفقيا وعموديا وتسري يوميا في كل المسارات والساحات والمؤسسات. لذلك ليس سلوك الحكم سوى قمة ظاهرة من هرم عريض في القعر، يمتد في الأعماق ليشمل كل التفاصيل المرئية وغير المرئية للمجتمع: أنظمة الرموز والدلالات، نمط الإنتاج الاقتصادي، نمط إنتاج الحقيقة، اللاوعي الجمعي، بنية الأسرة... إلخ. هنا يكمن مغزى مقولة تشرشل "كل شعب في العالم ينال الحكومة التي يستحقها". وهي مقولة تشبه حديثا منسوبيا إلى رسول الإسلام "كما تكونوا يولى عليكم". هل معنى ذلك أن الإجابة عن السؤال "ما العمل؟" هي أن لا شيء ممكن؟ يرى فوكو أننا ليس بوسعنا أن نفعل الكثير، لكن لا بد من أن نفعل شيئا ما، إن هناك دواما ما يمكن فعله. وطالما السياسة فن الممكن كما يرى لينين، فما هو الممكن الآن؟ المعطى الأساسي أن النظم السياسية لا تتغير جزاء تغيير الحكام، أو تغيير المسؤولين أو طردهم - حتى ولو كان طرد بعض المسؤولين يحمل بعض الإنصاف أحيانا - لكن تغيير

قبل الأعيان. قيل أن تندلع الحرب الأهلية داخل المجتمع فإنها تندلع داخل كل ذات على حدة. حين يجد المسلم نفسه في حرب أهلية مع عقله، حواسه، جسده، ميوله، أسئلته، خياله... إلخ، يسهل عليه الدخول في حرب أهلية مع الآخرين، كل الآخرين، مع الجميع.

من غير المؤكد أن الاستبداد سينهار قريبا، لكن المؤكد أن الثورات قد انهارت بالفعل، بل لعلها لم تكن في أساسها سوى طبعات متأخرة لـ"الثورة المغدورة". غير أن المتأخرين يعاقبهم التاريخ كما يقال، ثم إن كل ثورات التاريخ ليست سوى نسخ متكررة للثورة المغدورة، طالما لا تأتي النتائج وفق التوقعات، هي الحكاية نفسها على الدوام. فهل كنا نامل في أمال مغايرة هذه المرة؟ الحوار الذي أجراه نوري الجراح مع عبدالرحمن الكواكبي في

أشعر بأن سؤال الحرية بعيد كل البعد عنا، وبأن سؤالنا الأوحى الذي لا نطرح سواه هو لن نسلم أعناقنا بعد أن سلطنا عقولنا؟

ذلك هو الحال كما كان ولا يزال إلى الآن. منذ الفتنة الكبرى وما قبلها إلى غاية الحروب الأهلية الجارية اليوم وما بعدها. كان قدر التاريخ الهجري أن يكون خلدونيا محكوما بالدوائر التي تدور مثل الرحى بين جحيم الفتنة وجمر الاستبداد. فابن المعضلة؟

تكن المعضلة في أن كل واحد منا يحمل أصناما وألغاما داخل كينونته، وهي التي تحدد له سلفا حدود الطاعة والحرية، وترسم له الأفق الممكن وغير الممكن في اللاهوت والسياسة. ونحن يقول الخطاب القرآني "لا يغير الله ما يقوم حتى يغيروا ما بانفسهم". فلأن أفق التغيير الممكن مرسوم داخل الأنهان

سعيد ناشيد
كاتب مغربي

من "طبايع الاستبداد ومصارع الاستبعاد" إلى "طبايع المعتدين ومصارع الموهومين"، من عنوان رسالة عبدالرحمن الكواكبي إلى مقال افتتاحية نوري الجراح للعدد 64 من مجلة الجديد الثقافية اللندنية، إنها مسافة مئة عام من الهزائم والتكسبات والخيبات، مصحوبة بصخب الثورات المدوية بلا فائدة، وفي النهاية خرجنا خاوين بالكامل، منخورين من الداخل، ويا له من مال.

غير أن الحكاية تفاصيل باقية: عندما صار الداخل خاويا أصبح الخروج ملاذا تلقائيا مثل العصيانات العفوية، وهكذا تداعينا في لحظة حلم خائفة، وفي غفلة من الزمن ومنا أيضا، لأجل الخروج من الداخل المنخور إلى داخل من نوع آخر.. ثم خرجنا على حين غرة.. لكن إلى أين؟

الدرس نفسه ننسأه لكنه لا ينسانا: لا نخرج من الاستبداد إلا لكي نقع في أتون الفتنة، ولا نخرج من جحيم الفتنة إلا لكي نسلم رقابنا لاستبداد نخنحه بسكاكين حادة، ثم نغمدنا في انتظار أن تحين ساعة الفتنة التي لا تبقى ولا تذر، قبل أن تلقى باللائمة على المتأمرين علينا، وكل ذلك ضمن حلقة مفرغة من خروج يعيدنا مرة بعد كل مرة إلى المربع الأول، إلى حظيرة القطيع، حيث مجمل خيارنا أن نخترنا من يذبحنا؟ طبيعي والحال كذلك أن تتعامل الكثير من العقول مع التدخل التركي والإيراني في المنطقة العربية بمنطق أن الاحتلال مثل الصدقة في الأقربين أولي!

حين أسمع تعقبا على النحو التالي، أن تستعمرنا إيران أو تركيا لهو أذكى لنا من أن تستعمرنا فرنسا أو أميركا،



الاستبداد أو الفتنة (لوحة أنس سلامة)

ص 10، 11. ينشر كاملا على الموقع
بالاتفاق مع مجلة الجديد الثقافية اللندنية